الفصل الثاني

الرَّبيبُ والسّابِق

[من كُنتُ مولاه ،
فعَلِيٌّ مولاه .]
الرسول

ها نحن أولاء ، نقترب . .
ها نحن أولاء ، على الأبواب . .
ماذا . . ؟
ألا تسمعون . . ؟
إن رنيناً عذباً يجيء من داخل . .
إن قرآناً عجباً يُتلى . .
إن أهل الدار يُصلُّون .
تُرى مَنَ هناك ؟

لا أحد – طبعاً – سوى الرسول يَؤُمُّ وراءه فى الصلاة ابن عمه « علياً » وزوجه « خديجة » وخادمه « زيد بن حارثة » . .

يا لجلالِ المشهد . .

ويا لروعة الآيات التى ينبعث من داخل الدار عبيرها الشهىُّ ، ورنينها القوىّ . .

فلنصْغِ فى خشوع وتقوى . .

بسم الله الرحمن الرحيم

* حم
* تَنْزِيلُ الكِتَـابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . .
* إنَّ فِى السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ ، لآياتٍ للمُؤْمِنِينَ . .
* وفِى خَلْقِكُمْ . .
وما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ . .
آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .
* واخْتِـلاَفِ اللَّيْـلِ والنَّهـارِ . .
* وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ ، فأحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهـا . وتَصْرِيفِ الرِّياحِ . .
آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . .
* تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوهَـا عَلَيْكَ بِالْحقِّ . فبـأىِّ حَدِيثٍ بَعْـدَ اللهِ وآياتِهِ يُؤْمِنُونَ . . ؟ !
* وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . .
* يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ . .

ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كأنْ لَمْ يَسْمَعْها
فبشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ . .

* * *

لقد سكن الصوت . .
لعلهم الآن يركعون ، ويسجدون . . !
لعلهم يسبِّحون ، ويستغفرون ! !
لعلهم يتدَّبرون ، ويتأملون ! !
فلنبقَ مكاننا مُواصلين خشوعنا وإصغاءنا . .
إن الرنين العذب يعود . .
وها هو ذا يعلو فى جماله وجلاله ، فاستمعوا يا صِحاب . .

* * *

* ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ
الأَمْرِ فاتَّبِعْها . .
ولا تَتَّبِعْ أهْواءَ الَّذِين
لا يَعْلَمُونَ .
* إنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً . .
وإنَّ الظالِمِينَ بَعْضُهم أوْلِيَاءُ
بَعْضٍ . . واللهُ ولِيُّ المتَّقِينَ . .
* هذا بَصائِرُ للنَّاسِ . .
وهُدًى . .
ورحمةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . .

* أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات ؟ ؟ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُم ؟ ؟ ساءَ ما يَحْكُمُونَ ! !

* وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰواتِ والأَرْضَ بالْحَقِّ . ولِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ .

* أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ . . وأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ . . وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ . . وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً . . فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ ؟ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ !

* وقالُوا : ما هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا . . نَمُوتُ ، ونَحْيَا . . وما يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ . . وما لَهُم بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ . . إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ .

* وإِذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ ، ما كان حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنَا ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

* قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ . .
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ . .
ثُمَّ يَجْمَعُكم إِلَىَ يَوْمِ القِيامَةِ
لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لا يَعْلَمُون .

هنا يعيش « علىٌ » ويحيا . .

أجل ، هنا مُذْ كان « محمد عليه السلام » عابداً يبحث عن الحق ، ويتعبد فى غار حراء ، ويُقلِّب وجهه فى السماء . وكأنه على موعد يترقّبه ويتعجّله . .

وهو هنا يعيش بعد أن أوحِيَ إلى الرسول ودَعتْه السماء ليقول كلمتها ، ويبلغ رسالتها . .

وعندما بدأت أيام الرسالة الأولى . . بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها — كان هناك ثلاثة يلحظون التغير الهائل الذى أخذ يرسم سيماه على حياة الرسول .

هم : خديجة — زوجته .

وعلى — ابن عمه .

وزيد — خادمه .

ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضاً .

سأله « على » وهو ابن عشر سنين لا غير :

— ماذا أراك تصنع . . ؟

وأجابه الرسول :

– إنى أُصلى لله رب العالمين .

وسأل علىّ :

– ومن يكون رب العالمين . . ؟

وعلَّمه الرسول وهداه :

– إنه إله واحد . . لا شريك له . . له الخَلْق . . وبيده الأمر . . يُحيي ويُميت . . وهو على كل شيء قدير . .

ولم يتردد الغلام المبارك ، فأسلم . . وكان أول المسلمين . . فى حين كانت خديجة رضى الله عنها أول المسلمات .

ومن ذلك اليوم ، وهو مع النبى لا يفارقه ، يصلى معه ، ويُصغى إليه ، ويراه وهو يتهيَّأ لتَلقِّ الوحى . .

وكم من آية ، وآيات ، كان هو أول من يسمعها وهى لا تزال حديثة العهد بمنزِّلها ومُوحيها .

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول يُقبلون عليه مؤمنين : أبو بكر الصديق . . فعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وابن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص . .

فأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وأبناء مظعون ، وخبَّاب ، وسعيد ابن زيد ، وعمّار ، وعمير ، وابن مسعود الذين كُتِبَ لهم حظ السبق إلى الإسلام . .

وصارت « دار الأرقم » على الصَّفا مكان لقائهم ، يلتقون فيه خُفية وسِرًّا ، فيتلو عليهم الرسول ما يتنزل به الوحى على قلبه ، ويصلى بهم ، ويبارك إيمانهم .

* * *

لم يغب « على » عن دار الأرقم أبداً ، ولم يَفُته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد . .

وتحت سقفها . . وكذلك تحت سقف الدار التى يسكنها النبى ، ويقيم علىّ معه فيها . طالما سمع آيات الله تُتلى . وطالما غَمرتْه أنوار النبوة تغسل حَوْبه وذنبه . .

ماذا . . ؟ !

أأقول تغسل حَوْبه وذنبه . . ؟ !

ولكن متى كان له حوْب أو ذنب . .

متى ، وهو الذى وُلد فى الإيمان ، والعبادة ، والهدى . . ؟

إنه وهو فى السادسة من عمره بدأ يعيش مع « محمد » الصادق الأمين ، يتأدب على يديه ، ويتأثر بطهره ، وعظمة نفسه ، وتُقَى ضميره وسلوكه . . وحين بلغ العاشرة ، كان الوحى قد أمر الرسول بالدعوة . . وكان هو سابق المسلمين ! !

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجىء اليوم الذى سيلقى فيه ربه . . تطبيقاً كاملاً وأميناً لمنهج الرسول وتعاليم القرآن .

ألا بوركت هذه الحياة ! !

حياة لم تكن لها قط ، صَبْوَة ، ولا شهوة ، ولا هفوة ! !

حياة : وُلد صاحبها ، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله ! !

حتى لهْوُ الأطفال ، لم يكن لحياة ابن أبى طالب فيه حظ ولا نصيب . .

فلا مزامير البادية ، ولا أغانى السُّمار ، شبع منها سمع الطفل ، ووُجْدان الشاب . .

لكأن المقادير كانت تدَّخر سمعه ووجدانه ، لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض ، ووجه الحياة ! !

أجلْ . . لقد ادُّخِرَ سمع الفتى وقلبه ، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مِثْله آياتِ الله العلى الكبير .

أرأيتم الآيات التى سمعناها من قبل . . ؟

فلنتصوّر « علياً » وهو يسمعها طازجة ، مشرقة ، متألقة ، حديثة العهد بربها ، يُرَتِّلها رسول رب العالمين . . ! !

ولكن . . فلن نستطيع أن نتصور ، أو حتى نتخيَّل !

وحسبنا ونحن نطالع هذه الحياة أن نقدر على مُتابعة الكلمات التى تروى أنباءها وعجائبها . . ! !

* * *

فى نور هذه الآيات المنزَّلة ، والتى كان الوحى يجىء بها تِباعاً ، قضى « على بن أبى طالب » بواكير حياته النضرة ، يبهره نورها . . ويهزُّه هديرها . .

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رَأْىَ العين ، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها !

ويسمع آية النار ، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار . . ولولا جلال الصلاة وحرمتها لولَّى هارباً من لفح النار الذى يكاد يُحسُّه ويراه ! !

أما إذا سمع آية تصف الله فى عظمته ، وجلاله ، أو آية تعاتب

الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم ، وجحودهم فضلَه ونعمتَه . . فعندئذ يتحول الغلام الراشد إلى ذَوْبِ تُقى وحياء !

لقد أُشْرب قلبُه جمال القرآن ، وجلاله ، وأسراره . . هذا الذى كان يشهد نزوله آية ، آية ؛ حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق :

[سَلُونى ، وسَلُونى ، وسَلُونى عن كتاب الله ما شئتم . .

[فوَالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلَتْ فى ليل ، أم فى نهار] !

وحتى كان كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه .

[أَعطَى القرآن عزائمه ، وعِلْمه ، وعمَلَه . . فكان منه فى رياضٍ مونقة وأعلامٍ بيِّنة] ! !

* * *

هذا ، هو : على بن أبى طالب .

هذا ، هو الذى نرجو ألا نكون مغالين إذ وَصفْناه بأنه : « رَبيبُ الوحى » ! !

فطوال السنوات الأولى لنزول الوحى ، كان فتانا هناك ، يشهد نُزوله ، ويسبق غيرَه فى تَلَقِّيه من رسول رب العالمين . ويُلقى سمعه ، وقلبه لأسراره وأنواره . .

ولطالما شهدته شعاب مكة ، وهو « ثانى اثنين » الرسول عليه السلام ، وعلى كرمّ الله وجهه ، يصليان معاً ، بعيداً عن أعين القُريشيين وأذاهُم . .

وهناك فى رحاب الصحراء الواسعة ، حيث لا يرتدُّ البصر أمام حدود أو سدود ، وحيث تتنزَّل على النفس أسرار الكون العظيم ، عاكسةً على الشعور جلاله ومَجْده ، كان « علىٌّ » يتلقى من فم الرسول كلمات القرآن وآياته – نفسُه مُرهفة ، وعزمه متهلِّل . . قلبه جميعٌ ، ورُوحُه حرّ . . وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتَسبة ، تتلقَّى تأثيراً لا يقاوم . . وتستسلم فى غبطة مُطْلقة لهذه الآيات التى آمن بها وَحْياً ، ودِيناً . وآمَنَ بقارئها وتاليها نبيًّا ورسولاً . . ! !

من أجل هذا ، لا نعجب ، إذا رأينا « عليًّا » طوال حياته يعطى القرآن ولاءً مطلقاً . . ولا يقبل أدْنى مَيْل عنه ، ولا يغفر أقلَّ تفريط فيه .

إنه « ربيب الوحى » والتلميذ الأول للقرآن . .

وإنه « سابق المسلمين » . .

ألم يسمع القرآن يتساءل فى هَدير ورَهبة :

[تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالْحقِّ
فَبأَىِّ حَـدِيثٍ بَعْـدَ اللهِ وآياتِهِ
يُؤْمِنُونَ] . .

بأىِّ حديث . . ؟ !

إن الفتى الأوَّاب لَيرتجف من هول التساؤل ، وجلالِ الخطاب ويجيب فى صيحة مكظومة :

– لا بحديث غير حديثك نؤمن ، يا ربَّ كل شىء ! !

ومن هذه الآية ، ومثلها معها من آيات القرآن العظيم ، أُشرب قلبُ « علىٍّ » ولاءً للقرآن ليس له نظير . !

ألم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول :

[ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعةٍ مِنَ الْأَمر
فَاتَّبِعْهَا ، ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
لا يَعْلَمُونَ] . .

إنه – ايضاً – من هذه الآية ، ومثلها من آيات القرآن وتعاليم السماء ، ليستمدُّ عزماً خارقاً على أن يسير فوق صراط الحق بخطى ثابتة راسخة أكيدة ، مُتخطِّياً أهواء الذين لا يعلمون فى استقامةِ قدِّيس ، وشُموخ مقْتـدِر . . . !

لك الله ، أبا الحسَن ! !

أكنتَ تدرى ، أىَّ معارك ضارية ستخوضها غداً ضد أهواء الذين لا يعلمون ؟

* * *

من ولائه الوثيق للقرآن ، وشهوده فجرَ الوحى وُضحاه كان « علىٌّ » ربيب الوحى . .

ومن ولائه الوثيق للإسلام ، وسبقِه إليه قبل غيره من رجال العالمين – كان « علىٌّ » سابق المسلمين . .

و « سابق المسلمين » – لقبٌ لا يستحقه « على » لمجرد سبقه إلى الإسلام .

فعلىٌّ ، هوالذى علّم الناس فيما بعد ، أنه : ليس الطريق لمن سَبَق . . بل لِمن صَدقَ . .

إنما يستحقه لأنه حاز كلتا الحسْنَيين : السَّبق . . والصِّدْق . .

وحين نتتبَّع مظاهر إسلامه نرى عجباً . .

وحين نستقبل شمائل إيمانه ، نستقبل رَوْضاتٍ يانعات نتأنق فيهن ، ويُثْمِلُنا عبيرها ، وطُهرها ، وتقاها !

* * *

والآن ، ما بالُكُم برجل اختاره الرسول من بين أصحابه جميعاً : ليكون فى يوم المؤاخاة أخاه . . ؟

كيف كانت أبعاد إيمانه وأعماقه ، حتى آثره الرسول بهذه المكرمة والمزيَّة . . ؟

عندما تمَّت هجرة النبى والمسلمين إلى المدينة ، آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار . . وجعل لكل أنْصارىّ أخاً من المهاجرين . . حتى إذا فرغ – عليه السلام – من دَمْجهم فى هذا الإخاء العظيم رنا بصرُه تلقاء شاب عالى الجبهة ، رَيان النفس ، مشرق الضمير . . وأشار الرسول إليه ، فأقْبل عليه . .

وبين الأبصار المشدودة إلى هذا المشهد الجليل ، أجلس النبى « علياً » إلى جواره ، وربت على كتفه ، وضمَّه إليه ، وهو يقول :

[. . وهذا أخى] ! !

لقد كان الصدِّيق « أبو بكر » ، وكان الفاروق « عمر » آنئذ هناك . . فهل من حقنا أن نتساءل : لماذا لم يختص الرسول أحدهما بهذا الذى اختصَّ به علياً . . ؟

إن تساؤلاً كهذا ، يفسد جلال المشهد ويُفوِّتُ علينا رُواءه .

والمسلم الذى ينشد الأدب مع رسول الله ، وأصحابه – يحنى هامته

إجلالاً لهذا الرعيل الأوّل والأسبق من أصحابه على حد سواء .

* * *

اختار « الرسول » إذن « علياً » ليكون فى هذه المؤاخاة أخاه . .

وكل شرف كان الإسلام يُضفيه على « ابن أبى طالب » — كان يزيد إحساسه بمسئولياته الدينية شحذاً ، وقوة . .

ولم يكن فى طول الدنيا وعرضها ما يراه ابن أبى طالب كُفؤاً لأن يكون مثوبةً على إسلامه وأجراً .

إن « الإمام » كرم الله وجهه كان يعرف تماماً قيمة الذى هداه ربه إليه . . وكان من الذين يؤمنون بأن الخير مثوبةُ نفسه . فالذى يُوَفق للخير وللحق يكون جاهلاً بقيمة الحق والخير ، إذا هو طلب من الدنيا مثوبةً وأجراً نظير فعله الخير وحَمْله راية الحق .

وهكذا حمل « على » إسلامه بين جنبيه ، وتحت ضلوعه ، وفى أعماق روحه ، ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل فنونها وزينتها . .

وكلما تراءت له مباهجها صدَّها بعبارته المأثورة :

[يا دنيا ؛ إليكِ عَنِّى . . يا دنيـــا ، غُرِّى غيرى] .

* * *

و« على » فى إسلامه ، نموذج عظيم مكتمل الشكل والجوهر .

فإذا كان الإسلام عبادةً ، ونُسكاً . . جهاداً ، وبذلاً . . ترفعاً ، وزهداً . . فطنة ، وورعاً . . سيادة ، وتواضعاً . . قوة ، ورحمة . . عدالة وفضلاً . . استقامة ، وعلماً . . بساطة ، وتمكناً . . ولاء ، وفهماً . .

إذا كان الإسلام ذلك كله ، فإن « سابق المسلمين عليًّا كرم الله وجهه » كان أحد النماذج الباهرة والنادرة لهذا الإسلام . . ! !

ومَن شاء أن يتعرف إلى حياة الإمام وسلوكه ، فليقرأ كلماته . . ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله ، تفاوت أو تناقض .

أجل . . لم يكن بين ما يقول ، وما يفعل . بُعْدٌ ولا مسافة ، ولا فراغ . . !

فإذا حثَّ الناس على الزهد ، فلأنه أسبقهم إليه . .

وإذا حثَّهم على البذل ، فلأنه أقدرهم عليه . .

وإذا حثَّهم على طاعة – أية طاعة – فلأنه يُمارسها في أعلى مستوياتها . .

صلّى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة ، وهو أمير للمؤمنين ، فلما فرغ من صلاته جلس ساهماً حزيناً . . ولبث في مكانه ومجلسه ، والناس من حوله يحترمون صَمته فلا يتحركون حتى طلعت الشمس ، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد من داخل . فنهض « الإمام علي » وصلى ركعتين : ثم هزّ رأسه في أسًى ، وقلب يده وقال :

[والله : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فما أرى اليوم شيئاً يُشبههم . .

[لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سُجَّداً لله ، يتلون كتابه ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم . . وإذا ذكروا الله مادُوا كما يَميدُ الشجر

فى يوم الريح . . وهملَتْ أعينهم حتى
تَبتلَّ ثيابهم » . .

هذه صورة الماضى العظيم . .

صورة الأيام الجليلة الرائعة – أيام الوحى والرسالة – يعيش فيها « على العابد » دوماً وأبداً . . ولا يستطيع الزمن مهما توغِل فى البعد أيامه وأعوامه أن ينتزع « الإمام العابد » منها ، فهى مَنْسَكُه ومحرابُه . . ! !

* * *

وإنه ليُحدِّث المسلمين عن الإسلام الذى آمن به ، وجعله كتاب حياته ، فيقول :

[تعلَّموا العلم ، تعرفوا به . . واعملوا ، تكونوا من أهله . .

[ألاَ وإن الدنيا قد ارتحلتْ مُدْبرة . وإن الآخرة قد أتت مُقبلة . . ولكل واحدة منهما بنون .

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

[ألا وإن الزاهدين فى الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً ، والتراب فراشاً ، والماء طيباً .

[ألا وإن مَنِ اشتاق إلى الآخرة ، سلا عن الشهوات . .

ومن أشفق من النار ، رجع عن المحرمات . .

ومن طَلب الجنة ، سارع إلى الطاعات . .

ومن زهد فى الدنيا ، هانت عليه مصائبها . .

ألا ، وإن لله عباداً — شُرورُهُم مأمونة . . وقلوبهم محزونة . . أنفسهم عفيفة . . وحوائجهم خفيفة . .

صبروا أياماً قليلة لِعُقْبَى راحة طويلة . .

إذا رأيتهم فى الليل ، رأيتهم صافِّين أقدامهم . . تجرى دموعهم على خدودهم . . يجأرون إلى الله فى فِكاك رقابهم . .

[وأما نهارهم فَظِماء ، حُلَماء ، بررَةٌ ، أتقياء ، كأنهم القدَاح . . ينظر إليهم الناظر فيقول : مرْضَى . وما بهم من مَرَض ، ولكنه الأمرُ العظيم . ! !]

* * *

الأمر العظيم . . ! !

ذلك هو شغله الشاغل . . ينام على هديره . . ويصحو على زئيره . . ! !

دين الله الذى حمل أمانته ، وقرأ كتابه . . ويوم الله ، الذى سيقف فيه بين يديه غداً ، لينظر جزاءه وحسابه . ! !

أَوَمِن أجل هذا ، لا ينام « على » ولا يستريح . . ؟

أجل . . .

من أجل هذا ، يقضى ليله ونهاره فى عبادة تُضْنى جسمه الأَيِّد الوثيق .

ومن أجلْ هذا ، يدعُ الدنيا وراءه ظِهرياً ، فيأبى وهو خليفة للمسلمين ، أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة . ويؤثر عليه الأرض الخلاء . والدار المهجورة . . ! !

ويُلحون عليه كى ينزل قصر الإمارة هذا . فيجيبهم :

[لا . .

قصر الخَبال لا أنزله أبداً] ! !

ومن أجل هذا ، يلبس الثوب الخشن ، فيسأله أصحابه أن يعطى نفسه ومنصبه بعض حقهما فيقول :

[هذا الثوب . يصرف عنى الزَّهْو . .

ويساعدنى على الخشوع فى صلاتى . .

وهو قدوة صالحة للناس ، كى لا يسرفوا ويتبذَّخوا] . . ! !

ثم يتلو آية القرآن العظيم :

« تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجعَلُها لِلَّذِينَ
لا يُرِيدُونَ عُلُواً فى الأَرْضِ ولا فَسَاداً ،
والعَاقِبَةُ للمتقين » ! !

إنه لا يركَنُ إلى الدنيا لحظة من نهار .

إنها بالنسبة له ، قد أدْبَرَتْ وآذنتْ بوداع . . فلماذا إذن يعطيها ولاءه وبلاءه ؟

إن الآخرة عند الإمام . . هى الدار . . هى الأبد . . وما أهل الدنيا فى شتى العصور والدهور إلا سائرون فوق جسر . . كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية حيث الجنة ، أو النار . ألا فلنُصْغ لحديثه :

[إن المضمار اليوم ، وغداً السِّباق . .
ألا وإنكم فى أيام أمل ، من ورائه أجل . .
فمن قصَّر فى أمله قبل حضور أجله
فقد خاب عمله . .
ألا فاعملوا لله فى الرَّغْبَة ، كما تعملون له فى الرَّهبة . .
ألا وإنى لم أرَ كالجنة نام طالبها !
ولم أرَ كالنار نام هاربُها !
ألا وإنَّ مَن لم ينفعه الحق ، ضَرَّه الباطل . .

ومن لم يَسْتقِمْ به الهُدى ، حادَ به الضلال .

ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر . .

وإن الآخرة وعدٌ صادق ، يحكُم فيها مَلِكٌ قادر . .

وإن أخوفَ ما أخافُ عليكم اتباع الهوى وطول الأمل . .

فإن اتِّباعَ الهوى ، يَصُدُّ عن الحق . .

وإن طولَ الأمل ، ينْسى الآخرة] !

* * *

فلتأت الأحداث والأهوال عاصفةً ، تقتلع الجبال من حول الإمام ؛ فإنه لن يتبع الهَوَى أبداً .

[فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحق] !

ولتبذُل الدنيا له كل نفسها وزينتها ، وبهجتها ، وإغرائها ، فإنه لن يربطها به أمل ولا رجاء .

[فإن طول الأمل ، يُنْسى الآخرة] !

وهو – رضى الله عنه – لا يريد أن يتوه عن الحق ، ولا يريد أن ينسى الآخرة .

فالحق حياته . . والآخرة داره . .

عَلى أن زهد ابن أبى طالب فى الدنيا ، وعزوفَه عنها ليس زُهد

الهاربين من تبعات الوجود ومسئوليات الحياة .

إنما هو زهد يُشكِّله إسلامه ، الذى يجعل المسئولية العادلة ديناً ، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادةً وقربى . .

وهنا نلتقى بـ« على » يصحح المعايير والموازين إذْ لا يكاد يسمع رجلاً يذم الدنيا مَذمَّة العاجز المتواكِل حتى يقول :

[الدنيا دارُ صِدْقٍ ، لمن صَدَقَها
ودارُ نجاةٍ ، لمن فَهِمَ عنها ، ودار غِنًى
وزادٍ ، لمن تزوَّدَ منها .
[مَهبطُ وحى الله . .
ومَسجد أنبيائه . .
ومَتْجَرُ أوليائه . .
ربَحوا فيها الرحمة ، واكْتَسبوا فيها
الجنة] . .

أجل . . هذه هى دنيا المسلم ، كما يفهمها ربيب الوحى ، وسابق المسلمين . .

دار عمل ، لا لهو . . يكدح فيها الإنسان لينشئ لنفسه مصيراً سعيداً يومَ يقوم الناس لرب العالمين .

وهى دار صدق ، لمن عاش فيها صادقاً مع مسئولياته وتبعاته . .
ودار نجاة ، لمن سار فيها على دَرب النجاة . .

* * *

وبهذا الفهم السديد للدنيا ، ربحهَا « على » وربَح بها مصيره وأُخرَاه . .

فهى بالنسبة له ، لم تكن دار لعب ولهو أبداً . .

مُنذ طفولته الباكرة ، حمل الإسلام فى قلبه . وحمل معه كل أعباء الرجال .

ولقد قطع حياته وقضى أيامه على الأرض فى كفاح موصول ، ونضال لم يعرف الراحة يوماً . . ! !

وعاش كما وصفه الرسول عليه السلام :

[مُخشَوشِنٌ فى سبيل الله]

مَقَتَ الترف من كل نفسه ، ونأى عنه بكل قوته وعزمه .

ذلك أنه فهم الإسلام وعاشَه ، وتعلم منه أن الترف مَشْغَلَةُ الفارغين العاطلين .

والإنسان الذى يعيش مع مسؤوليات كبار كتلك التى يفرضها الإسلام الحق على أبنائه الحقيقيين وأهله إنما يكون حظه من الصدق والتوفيق مضاهياً حظه من البساطة والتخشن .

وهكذا كان الإمام . .

وهكذا أراد للناس أن يكونوا . .

عندما قدم مكة من اليمن ورسول الله يومئذ يحج بها حِجَّة الوداع ، تعجَّل هو إلى لقاء النبى تاركاً جنوده الذين عادوا معه على مشارف مكة بعد أن أمَّر عليهم أحدهم .

وبدا لهذا الأمير المستخلف أن يلبس الجند حُللاً زاهية من تلك التى عادوا بها من اليمن ، حتى يدخلوا مكة وهم فى زينتهم يسر منظرهم الأعين . وأمرَهم ، فأخرجوا من أوعيتهم حُللاً جديدة ارتدوها . واستأنفوا سيرهم إلى مكة .

وعاد « على » بعد لقاء الرسول ، ليصحب جنده القادمين . .

وعلى أبواب مكة رآهم مقبلين فى حُلَلِهم الزاهية .

وأسرع نحوهم ، وسأل أميرهم : (ويْلكَ . . ما هذا) ؟

قال : لقد كسوتُ الجند ليتجمَّلوا إذا قدموا على إخوانهم فى مكة . .

وصاح به « على » :

– ويلك . . انزع قبل أن تنتهى بهم إلى رسول الله .

فخلعوا حُللهم جميعاً . وكظموا فى أنفسهم مرارة ما صنع بهم « علىّ » الورع ، الزاهد ، الأوّاب . .

ولما دخلوا مكة ، ولقوا الرسول ، شكا إليه بعضهم علياً ، وقصوا عليه نبأه معهم .

فاستقبل الرسول القوم وقال :

[أيها الناس . .
لا تشكُوا علياً . .
فَوَاللهِ ، إنه لأخْشَنُ فى سبيل الله
من أن يُشْكى] ! !

* * *

وهو بإسلامه وفى إسلامه لا يتغير – طفلاً وشاباً ، وشيخاً . . جندياً ، وقائداً وخليفة للمسلمين . .

إنَ تقوى الله تأخذ عليه لُبَّه . . وهو لا يعامل الناس بذكائه ، ولا بحسبه ونسبه . بل بإخلاصه وتقواه . .

ثم هو لا يريد منهم ، بل ولا يقبل منهم أن يعاملوه بغير الصدق والتقوى .

من أجل هذا سنراه حين يقع الصدام بينه وبين معاوية يؤثر الهزيمة مع الإخلاص والتقوى ، على انتصار يتحقق بالمكر والمراوغة .

ويقول له ابن عمه « عبد الله بن عباس » وهو الصالح الورع خادِعْهُم . فإن الحرب خُدعة) فيجيبه الإمام الطاهر :

[لا والله . .

لا أبيع ديني بدنياهم أبداً] ! !

مُسلم عظيم . . يُفَجِّر الدنيا من حَواليه ذِمَّة ، واستقامة ، وطُهراً . .

* * *

وكذلك نراه وهو يخطب أصحابه فى أول جمعة له بالكوفة . وهو أمير المؤمنين ، لا يخطب خطبة خليفة ولا أمير ولا حاكم . .

لا يصدر قرارات ، ولا يرسم سياسة . . على كثرة ما كانت الظروف تتطلب من قرارات ، وسياسة . . بل لا يجعل خطابه الأول هذا استجابةً لحماس أصحابه وشدِّ زِنادِ الحميَّة فى أنفسهم استعداداً للمعركة التى سيخوضونها مع جيش الشام المقاتل ، المدرَّب ، الصعب المراس .

لاشىء من ذلك كله يُضمِّنه الخليفة والإمام خطابه .

إنما هى الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته :

اسمعوا . .

[. . أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ؛ فإن تقوى الله خير ما تواصَى به عباده ، وأقرب الأعمال لرضوانه ، وأفضلها فى عواقب الأمور عنده .

وبتقوى الله أُمِرتُم ، وللإحسان خُلقْتم . .

[فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه ، فإنه حذّر بأساً شديداً .

« واخْشَوا الله خشيةً ليست بتعذير

« واعملوا من غير رياء ولا سُمعة ، فإن مَنْ عمل لغير الله وكلَهُ الله إلى ما عمل ومَن عَمِل مخلصاً له تولاه الله ، وأعطاه فضل نيته . . وأَشفِقُوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً ولم يترك شيئاً من أمركم سُدى « قد سَمَّى آثاركم ، وعلم أسراركم وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم فلا تغرُنّكم الدنيا ، فإنها غرَّارةٌ لأهلها ، والمغرور من اغترَّ بها .

وإن الآخرة لهى دار القرار] .

أهذا خطاب رئيس دولة . . ؟

كلا . . إنما هو خطابُ ناسك . . ! !

خطاب مسلم ومؤمن وجَّه وجْهه وقلْبه وحياته للذى فطَر السماوات والأرض ، لا يعنيه إلا أن يحيا فى مرضاته تقياً ، وأن يحيا الذين من حوله أتقياء ، أنقياء .

* * *

كذلك نراه ونرى إسلامه الوثيق حين لم يعد له بُدٌّ من لقاء معاوية فى معركة « صفّين » يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً ، فلا يَعِدُهم ولا يُمَنِّيهم . ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ، ثمناً للنصر إذا هم ظفروا به . .

إنما يحدِّثهم حديثاً آخر يختلف عن كل الأحاديث التى تتطلبها أمثال هذه المناسبة .

انظروا . .

[. . ألاَ إنكم مُلاقو القوم غداً . .
فأطِيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم
وأكثروا تلاوَة القرآن ، وسَلوا الله
الصبر والعفو والعافية] .

فى أوقات السلم ، وفى أوقات الحرب . .

فوق ثَبَج النصر ، وتحت وقع الهزيمة . . فى سرَّائِه ، وفى ضرائه لا يستولى على تفكيره ، وعلى ضميره ، وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه . !

وحتى وهو يكتب إلى عمرو بن العاص الذى انحاز إلى صف معاوية ، وبات يشكِّلُ خطراً حقيقياً على جبهة الإمام ، لا نلتقى بالإمام يُمَنِّى عَمراً بدنيا ، ولا يستميله إلى هوى – نفس السلاح الذى كان « معاوية » يكسب به الأنصار . . بل نبصره يصدع عَمراً بالحق فى غير مساومَة ، ولا مُجامَلة .

إنه يناشده تقوى الله لا غير . . . هذه التقوى التى تجرى من

ابن أبي طالب مَجْرَى الدم ، فيقول له فى كتابه إليه :

[مِن عبد الله « على » أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . . أما بعد ، فإن الدنيا مَشْغَلَةٌ عن غيرها . . وصاحبُها مقبورٌ فيها ومنهومٌ عليها . . لم يُصِب منها شيئا قط ، إلا فتَحَتْ له حرصاً ، وإلاّ أدْخَلَتْ عليه مَؤونة تزيده رغبة فيها . . . ولن يستغنى صاحبها بما ناله عما لم يَبْلُغْه ، ومن وراء ذلك فِراقُ ما جَمع والسعيد من وُعِظَ بغيره ، فلا تُحْبطْ أجرَكَ أبا عبد الله ، ولا تُجارينَّ معاوية فى باطله ، فإن معاوية غمط الناس ، وسَفِه الحق] !

* * *

إنه يرفض أن تحدد علاقات الناس به ، أو علاقاته بهم منفعة أو غرض .

حتى فى أحرج ساعات حياته ، يُمْعن فى الرفض وفى الاستغناء .

إنه يؤمن بأن « الحق مقدس » وأنه أَجَلُّ من كل ثمن .

ولا شىء على وجه الأرض يمثل الحق فى يقينه مثلما يمثله الإسلام .

من أجل ذلك نَذر حياته لقضية الإسلام منذ عمره الباكر .

وعاش عمره المسلم يتنفَّس النقاء ، والصدق ، والاستقامة .

ليس فى حياته كلها وقفة واحدة مع المساومة ، أو المُداجاة ، أو الالتواء . .

ولعله لو شاء لكان داهيةً لا يشقُّ له غبار . . فَحِدَّةُ ذكائه ، واتقاد بصيرته يعطيانه من الدهاء ما يريد .

لكنه تخلَّى عن كل مواهب الرجل « الداهية » وأحَلَّ مكانها كل مواهب الرجل « الوَرِع » . . ! !

إن فهمه لحقيقة الإسلام . وإن ولاءه الوثيق له . . قد حمَّلا حياته من الأعباء فوق ما تُطيق . .

ولقد كان بعض جهاده وبلائه كفيلاً بأن يبوئَّه مكانه العالى بين الأخيار الصادقين .

ولكن الرجل الذى وصفه الرسول بأنه « مُخْشُوشِنٌ فى سبيل الله » قد أَخذ نفسه بعزائم الأمور ، وناط قدرته وطاقته بالمستحيل ، ونذر للإسلام حياة استقلها ، فراح يُحملها أَعباء مائة حياة . . ! !

* * *

ومع أَيامه المجيدة التى عاشها فى دنيا الناس هذه ، حقق الإسلام فيه معجزة الصياغة . . تلك المعجزة المتمثلة فى قدرة هذا الدين على صياغة العظمة الإنسانية فى أَحسن تقويم ! !

إن ابن أَبى طالب فى كل مجالات حياته ، لواحد من أولئك الذين تجلى فيهم إعجاز الإسلام ؛ فلنُواصِل سَيرنا معه ؛ لنرى كيف تكون العظمة الإنسانية . . وكيف يكون العظماء ! !